الدرس الأوّل: حقيقة الإنسان: من نحن حقًّا؟

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد، وعلى آل بيته الطيّبين الطاهرين، اللهم صلّ على محمّد وآل محمّد وعجّل فرجهم.

إذا أردنا أن نختصر مشكلة البشر على مرّ التاريخ، وخاصّةً في عالمنا المعاصر، يمكن أن نقول: المشكلة الأساسيّة للبشر هي الجهل بحقيقة اسمها الإنسان والجهل بكيفيّة صناعة هذا الإنسان. مشكلة البشر على مر التاريخ إمّا أنهم لم يكونوا على معرفة بهذا الإنسان، وإمّا أنهم لم يقدروا على بناء هذا الإنسان وصناعة هذا الإنسان، لكي يصل هذا الإنسان إلى كماله وسعادته. وظيفة هذا الكتاب هي محاولة استكشاف حقيقة الإنسان، ثمّ العمل على بناء هذا الإنسان .هذا كتابٌ يسعى إلى بناء الذات وطريقه في ذلك هو معرفة النفس الإنسانيّة واستكشاف حقيقة الذات.

هناك علوم كثيرة تتحدّث عن الإنسان، علم الطب يدرس الإنسان، علم النفس يدرس الإنسان، علم الأخلاق يدرس الإنسان، علم وظائف الأعضاء يدرس الإنسان، كثير من العلوم هدفها دراسة الإنسان. ما الذي يميّز هذا البحث؟ وما الذي يميّز هذا الكتاب؟ الذي يميّز هذا الكتاب أنّه يدرس الإنسان من جهةٍ لا تدرسها أيّ علوم أخرى، وهي الإنسان من جهة كونه موجودًا قابلًا للكمال وقابلًا للسعادة، الهدف من هذه الدورة أن نتعرّف على الإنسان ولكن من جهةٍ خاصّةٍ لا يدرسها أي علم آخر، وهذه الجهة هي كمال هذا الإنسان وسعادة هذا الإنسان. في هذه الدورة نريد أن نجيب عن سؤال بسيط ولكن في غاية الأهمية، هذا السؤال هو: ما هي حقيقة الإنسان؟ ما هو كماله؟ وما هي سعادته؟

حسنًا هناك مناهج كثيرة في التعامل مع المسائل، مثلا، أحيانًا نطرح مسألة من المسائل ونحاول الإجابة عنها بواسطة المنهج العقلي، بمعنى أن نأتي ونحلّل المسألة عقليًّا ومنطقيًّا ثم نتوصّل إلى الإجابة. هذا المنهج يُعتمَد في الفلسفة، فهل سوف نعتمد هذا المنهج في هذا البحث؟ الجواب كلّا. من المناهج أيضًا التي قد تُعتمَد هو المنهج النقلي والتعبّدي، بمعنى أن نطرح السؤال ثم نذهب إلى الآيات والروايات ونحاول أن نستخرج الجواب. هذا هو المنهج النقلي، فهل سوف نعتمد هذا المنهج في بحثنا؟ الجواب أيضًا كلا. من المناهج أيضًا التي قد تُطرَح المنهج التجريبي، منهج التجربة الحسيّة، وهذا المنهج كما نعرف هو المُعتمَد في كافة العلوم في أيّامنا. فالعلوم الآن بشكل أساسي تعتمد على المنهج التجريبي وعلى التجربة الحسيّة، بمعنى أن نطرح السؤال ثم نُجري تجارب حسيّة ونستخرج نتيجة. هل هذا المنهج هو الذي سوف يُعتمَد؟ الجواب أيضًا كلّا.

حسنًا، هذه المناهج هي المناهج الأساسيّة في مختلف العلوم، فلماذا لا نعتمد هذه المناهج؟ الجواب: أوّلًا المنهج العقلي هو منهج خاص بفئة من الناس، وهي الفئة التي تستطيع أن تتعقّل المطالب العقليّة والمطالب الدقيقة جدًّا، ونحن نريد أن نستفيد من منهج يكون عامًّا وشاملًا لكلّ الأفراد. المنهج النقلي وهو منهج صحيح ويمكن الاستفادة منه في مختلف المجالات، ولكن هو أيضًا منهج خاص بفئة من الناس وهم الذين يعتقدون بصدق القرآن وبصدق الروايات الشريفة، ونحن في هذا البحث نريد أن نستهدف جميع البشر حتّى الذين لا يؤمنون بالقرآن الكريم والروايات الشريفة. أمّا المنهج التجريبي فكلّنا نعلم أنّ المنهج التجريبي هو منهج خاص بالأمور الماديّة، فهو يدرس هذه الأمور الماديّة من خلال الحواس، وسوف يأتي بعد قليل أنّ الحقيقة التي نتحدث عنها والتي نسميها الإنسان هي حقيقة ليست ماديّة حتى ينفع معها المنهج التجريبي والمنهج الحسي.

حسنًا، ما هو المنهج الذي سوف يُعتمَد؟ هو منهج خاص وفريد من نوعه اسمه المنهج الفطري. ماذا يعني المنهج الفطري؟ يعني أن نرجع إلى أنفسنا، نغوص في أعماق هذه الأنفس، ونسأل أنفسنا سؤال بسيط: أيّتها النفس ما هي حقيقتك؟ ما هي سعادتك؟ ما هو كمالك؟ ثم بعد ذلك نبدأ بالبحث عن كيفيّة الوصول إلى السعادة وإلى الكمال من خلال الأدوات التي أودِعَت في فطرتنا. يعني نحن لن نستفيد من أمور نكتسبها من العالم الخارجي، كلّا، بل كلّ شيء سوف نستفيد منه هو عبارة عن أمور فطريّة مودَعة في نفس كلّ شخص منا.

الخلاصة، نحن نريد أن نبحث عن الإنسان من جهةٍ لا تُبحَث في أيّ مكان آخر، وهي جهة كماله وسعادته، ومنهجنا في ذلك الغوص في أعماق النفس من أجل استكشاف ما لديها من وسائل فطريّة، ثم نجيب عن هذه الأسئلة فطريًّا: ما هو الكمال؟ ما هي السعادة؟ وكيف نصل إلى هذا الكمال وهذه السعادة؟ هذا هو المحور الأول في بحثنا.

قلنا إنّنا سوف نبحث عن ذات الإنسان. حسنًا، أوّل سؤال يُسأَل: ما هي ذات الإنسان؟ وما هي حقيقة الإنسان؟ يوجد رؤيتان أساسيّتان بالنظر إلى حقيقة الإنسان. رؤية نستطيع أن نسمّيها "رؤية إلهية"، والرؤية الثانية هي "رؤية ماديّة". نبدأ الآن بالرؤية الماديّة، الرؤية المادية هي رؤية تقول حقيقة الإنسان هو هذا البدن، وكلّ القوانين الحاكمة على الإنسان هي ببساطة قوانين مادية. الرؤية الماديّة تُعامِل الإنسان كما تُعامِل هذا الكتاب، وكما تُعامِل هذه الطاولة على أنّها موجودات ماديّة محكومة لقوانين عالم المادة، والإنسان وإن كان موجودًا معقّدًا وفيه كثير من التعقيدات، إلّا أنّه مع ذلك موجود مادّي تحكمه القوانين الماديّة فنستكشفه ماديًّا، هذه الرؤية الماديّة. الرؤية الإلهيّة على خلاف الرؤية الماديّة، قالت: الإنسان ليس بدنًا فقط وهو ليس هذا الجسم المادّي، الجسم المادي هو جزء من أجزاء الإنسان،

ولكن يوجد في الإنسان حقيقة أخرى فوق المادّة وتُسمى "الروح". هذه الروح هي موجود غير مادّي، نسميه موجود مجرّد عن المادّة، موجود وإن كان له علاقة بالبدن، وإن كان يدبّر البدن، وإن كان يتحكّم بالبدن، ولكن هذا الموجود الذي نسمّيه روح هو موجود أعلى من المادّة وهو ليس ماديًّا.

إذا كان الأمر كذلك، فهنا نسأل: الإنسان إذًا له جزئان، جزء هو البدن وجزء هو الروح، نأتي ونسأل الرؤية الإلهيّة: بإعتقادك أيّ هذَين الجزئَين يُشكّل حقيقة الإنسان؟ فيكون الجواب: حقيقة الإنسان هي في روحه المجرّدة، أمّا هذا البدن فهو مجرّد وسيلة وأداة حتّى تتكامل هذه الروح في عالم المادة. هذه هي النظرة الإلهيّة لحقيقة الإنسان.

ونحن إذا تأمّلنا في أنفسنا نستكشف أوّلًا أنّه نعم، لدينا بدن وهو جزء من أجزائنا، ولكن بالتأمّل أكثر في حقيقتنا وفي ذواتنا نستكشف ذلك البُعد الغيبي المجرّد الذي لا تحكمه المادّة. فنحن حينما ننظر إلى أنفسنا نجد أمورًا من قبيل الحب من قبيل المشاعر من قبيل العلوم، هذه أمور هي أرفع من المادّة، فمحلّها هو موجود أرفع من المادّة، فهذه الروح هي أمر ليس ماديًّا، ونحن نعرف أنّ حقيقتنا هي في مشاعرنا وفي علومنا وفي الأمور التي لا ترتبط بأبداننا، فندرك حينما نتأمّل في ذواتنا أنّ حقيقتنا نحن البشر هي هذه الأرواح، لا الأبدان.

بعد أن تعرّفنا الآن على حقيقة الإنسان، نطرح السؤال التالي: ما الذي يميّز الإنسان عن كلّ الموجودات الأخرى؟ الجواب: الإنسان فيه مجموعة من القابليّات والاستعدادات والأدوات والوسائل التي لا توجد في أيّ موجود آخر، ونحن إذا نظرنا إلى سائر الموجودات وقارنّاها بالإنسان، نجد أنّ حركتها من ناحية التطوّر بطيئة جدًّا مقارنةً بالإنسان. مجتمع النمل مثلًا أو مجتمع النحل، صحيح أنّه على مدى السنوات ممكن أن نلحظ فيه شيئًا من التطوّر، ولكنّ هذا تطوّر ضعيف جدًّا، ومجتمع النمل من مليارات السنين قد يكون هو عينه مجتمع النمل الموجود الآن، وكذلك الحال في سائر الموجودات الأخرى. أمّا الإنسان فمن الواضح أنّ لديه مجموعة من الإمكانيّات والاستعدادات حتّى يتقدّم كلّ يوم ويطوّر من نفسه في كلّ يوم. ثانيًا لديه أدوات غير موجودة لدى سائر الموجودات، حينما نتحدّث مثلًا عن العقل، نتحدّث عن قوّة ساهمت في تطوّر البشريّة إلى حدّ جعلها تسيطر على كلّ عالم الطبيعة، كلّ هذا بفضل القوّة العقليّة. إذًا، الإنسان أودِعَت فيه مجموعة من القابليّات والاستعدادات، وأودِعَت فيه أيضًا مجموعة من الوسائل والأدوات والقوى التي جعلته موجودًا مميّزًا.

ولكن السؤال: هل هذا يكفي؟ الجواب: كلّا. لماذا هذا لا يكفي؟ لأنّ وجود هذه الاستعدادات، ووجود هذه القوى لا يؤدّي لوحده إلى وصول الإنسان إلى السعادة. الجواب هو: على الإنسان أوّلًا أن يعرف أين هي السعادة، ثمّ يوظّف الإمكانيات والقوى للوصول إلى السعادة. وكلّنا نعرف الآن أنّ القوّة العقليّة الموجودة عند الإنسان في كثيرٍ من الأحيان يُستفاد منها في أمور تؤدّي إلى تعاسة الإنسان وشقاء الإنسان. أو مثلًا الإنسان لديه استعداد للسيطرة على الطبيعة، وأحيانًا قد يُوظَّف هذا الاستعداد في السيطرة السلبيّة على الطبيعة، التي تعود بالشقاء على الإنسان وعلى سائر الموجودات. إذًا، الأمر ليس فقط أنّ لدى الإنسان إمكانيّات ولديه قوى، الأمر أبعد من ذلك، عليه أوّلًا أن يعرف حقيقته، ثم أن يعرف أين تكمن السعادة، وأين يكمن الكمال، ثمّ يحاول أن يوظّف هذه الإمكانيّات وهذه الاستعدادات وهذه القوى وهذه الأدوات في سبيل الوصول إلى كماله.

إذًا، خلاصة كلّ ما مر، من الواضح أنّ الإنسان ليس موجودًا ماديًّا صرفًا، وأنّ حقيقة الإنسان هي في روحه التي هي أرفع من المادة. هذا أوّلا، وثانيًا نحن إذا تأمّلنا في الإنسان نجد أنّ لديه إمكانيّات وقابليّات ليست موجودة في سائر الموجودات، ولديه وسائل وأدوات ليست موجودة لدى سائر الموجدات، ولكن هذا لا يضمن له الوصول إلى الكمال والوصول إلى السعادة. ما هو الذي يضمن الوصول إلى الكمال والوصول إلى السعادة ؟ أمران:

الأمر الأول: التعرّف على ما لدى النفس من قابليّات، وما هو كمال النفس، وما هي سعادة النفس.

الأمر الثاني: العمل على بناء الذات بنحوٍ يوصلها إلى الكمال ويوصلها إلى السعادة.

إذًا نحن أمام أمرَين: معرفة الذات وبناء الذات. والمراد من معرفة الذات أن نرجع إلى أنفسنا ونسأل أنفسنا سؤالًا: ماهو كمالك؟ وما هي سعادتك؟ هذا أوّلًا، أمّا بناء الذات فأن نحاول أن نجعل كلّ نشاطاتنا الحياتيّة، سواء العلميّة أو العمليّة، في كلّ لحظة من لحظات حياتنا، نجعل كلّ فعاليات حياتنا تتّجه نحو هدف واحد، وهو الوصول إلى الكمال والوصول إلى السعادة، أمّا سائر الأمور التي لا تأثّر إيجابيًّا على الوصول إلى السعادة والوصول إلى الكمال، فإنّنا نترك هذه الأمور ونتّجه نحو هدف واحد: الكمال والسعادة.

هذه الدورة بإختصار دورة معرفة الذات من أجل التوجّه نحو بناء الذات.